

الطريقة القادرية من إقليم توات إلى بلاد السودان
Qadiriyya from Touat and Bilad Al- Sudan

خالد محمد

¹ المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ

khalemod@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 19-09-2021 تاريخ القبول: 26-10-2021 تاريخ النشر: 30-12-2021

ملخص: يمثل احتضان فضاء توات للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، نقطة تحول في تاريخ هذا الفضاء جعلت منه محطة رئيسة لعبور الطريقة القادرية نحو بلاد السودان؛ تؤكد ذلك المعطيات التاريخية التي لا تشير إلى أن المغيلي قد عين من يخلفه على رأس الطريقة القادرية في الفضاء السوداني من أتباعه في بلاد السودان، بل عين في خلافته على رأس مشيخة هذه الطريقة أحد أبناء الفضاء التواتي هو الشيخ عمر بن أحمد البكاي الكنتي، وذلك رغم طول فترة إقامته في السودان حوالي 20 سنة بالمقارنة مع قصر مدة مكوثه (حوالي سنتين) في إقليم توات، وقد قام أبناء هذا الفضاء وفي مقدمتهم أبناء قبيلة كنته بعد انتشار الطريقة بتوات بترسيخ وجودها في بلاد السودان، فهذه المعطيات تبين الدور الذي أداه كل من الشيخ بن عبد الكريم، وأبناء توات وفي مقدمتهم الكنتيون في انتشار الطريقة القادرية في السودان.

الكلمات المفتاحية: التصوف، الطرق الصوفية، القادرية، المغيلي، إقليم توات، بلاد السودان

Abstract: The acceptance of Shaykh Muhammad Ben Abdelkrim Al-Maghili in the space of Touat represents a turning point in the history of this place that has now become a major step in the dispersion of the Qadiriyya towards the Bilad Al- Sudan. The proof is given by the choice of Al-Maghili to appoint, as successor to the head of the chiefdom of this tariqa, a native of Touat, Shaykh Omar Ben Ahmed Al-Bakkây Al-Kounti, rather than one of his Sudanese disciples, despite his long stay in Sudan (20 years), compared to the two short years spent in Touat. The natives of this space, at the head of which we find the members of the Kunta tribe, participated in the anchoring of the tariqa in the Bilad Al Sudan. These data confirm the role of Shaykh Ben Abdelkrim and the Kunti of Touat in the expansion of the Qadiriyya in Sudan, despite the attempts of particular Qadiri Sufis from other areas, including the Egyptian Mohamed Al-Baghdâdî, Shaykh of the tariqa Mahmoudiyya in 1550.

Key words: Sufism- Sufi orders- al- Qadiriyya- al-Mâghlîl: - Touat-Sudan

المؤلف المرسل: خالد محمد، الإيميل: khalemod@yahoo.fr

يمثل احتضان فضاء توات للشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي، نقطة تحول في تاريخ هذا الفضاء جعلت منه محطة رئيسة لعبور الطريقة القادرية نحو بلاد السودان؛ تؤكد ذلك المعطيات التاريخية التي لا تشير إلى أن المغيلي قد عيّن من يخلفه على رأس الطريقة القادرية في الفضاء السوداني من أتباعه في بلاد السودان، بل عين في خلافته على رأس مشيخة هذه الطريقة أحد أبناء الفضاء التواتي هو الشيخ عمر بن أحمد البكاي الكنتي، وذلك رغم طول فترة إقامته في السودان حوالي 20 سنة بالمقارنة مع قصر مدة مكوثه (حوالي سنتين) في إقليم توات، وقد قام أبناء هذا الفضاء وفي مقدمتهم أبناء قبيلة كنته بعد انتشار الطريقة بتوات بترسيخ وجودها في بلاد السودان، فهذه المعطيات تبين الدور الذي أداه كل من الشيخ بن عبد الكريم، وأبناء توات وفي مقدمتهم الكنتيون في انتشار الطريقة القادرية في السودان. فهل وفق الشيخ المغيلي في أداء هذا الدور في ظل الإكراهات التي فرضتها عليه أوضاع المنطقة سياسيا في تلك الفترة؟ وهل تمكن من التغلب على تلك الإكراهات التي فرضت عليه في ترجيح دوره الروحي بالنجاح في تبليغ رسالته الروحية؟

أهمية إقليم توات الاقتصادية والدينية والثقافية :

حسب المعلومة التي أوردها ابن خلدون في القرن 15م التي كشفت عن تحول مسالك القوافل الذاهبة من المغرب نحو بلاد السودان انطلاقا من سجلماسة باعتماد طريق الشرق العابر لإقليم توات من أعلى تمنطيط مرورا ببلاد الملثمين وانتهاء ببلاد السودان بدلا من الغرب انطلاقا من سجلماسة عبر ناحية السوس مرورا بتاغزا، فوالاتن الثغر الأخير من أعمال مالي من قبل القوافل التجارية العابرة للصحراء، فهو الذي أشار إلى أن وطن توات هو: "ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد، ومن بلد مالي إليه ... ولقد كانت بلد بودي وهي أعلى تلك القصور بناحية الغرب من ناحية السوس هي الركاب إلى والاتن، الثغر الأخير من أعمال مالي. ثم أهملت لما صارت الأعراب من بادية السوس يغيرون على سابلتها، ويعترضون رفاقها، فتركوا تلك، ونهجوا الطريق إلى بلاد السودان من أعلى تمنطيط" العبر في ديوان

الطريقة القادرية من إقليم توات إلى بلاد السودان

المبتدأ والخير: إبن خلدون، 1996م، ص 62" وهو ما توضحه رحلة ابن بطوطة في القرن 14م التي تؤكد بداية الاهتمام بإقليم توات من خلال رحلته نحو بلاد السودان عبر طريق الغرب انطلاقاً من سجلماسة مروراً بتاغزي فيبولاتن وانتهاء بمالي وعودته عبر طريق الشرق عبر توات انطلاقاً من بلاد السودان مروراً ببلاد الهكار فبودا بإقليم توات وانتهاء إلى سجلماسة "الرحلة: "إبن بطوطة 1989م، ص 342-347. " وفي القرن 16م، بدأت الأهمية الثقافية والفكرية للإقليم من خلال هجرة العلماء إليه بما فيهم المغيلي نفسه الذي توزع نشاطه الفكري ليشمل عدة محاور من العلوم الشرعية والدينية كالفقه والتفسير والتصوف، وأصول السياسة الشرعية في تسيير شؤون الرعية بمقتضيات أحكام الشريعة وإليه تعود بداية الإنتاج الفكري بفضل توات في مختلف فروع المعرفة في ذلك العصر بحسب الجرد الذي قدمه محمد بلباي بلعالم لعلماء توات، وإنتاجهم العلمي في مختلف مجالات المعرفة" التعريف ببعض الجوانب من منطقة توات الجزائرية وخضارتها: محمد باي بلعالم،: محمد باي بلعالم، 1988م، ص 48"

علاقته بإقليم توات: تبرز علاقة المغيلي بهذا الإقليم الذي لجأ إليه هرباً من ظلم الحكام الزيانيين بتلمسان وعدم تحبيذه للحوء المغرب مثل غيره من المشاهير الذين لجئوا إليه كالونشريسبي، في ارتباطه بسكانه بتلك العلاقة الخاصة مع قبيلة كنته عبر الوصية بخلافته على رأس مشيخة الطريقة القادرية لأحد أبناء هذه القبيلة الشيخ عمر بن أحمد البكاي الكنتي فهل كان هذا الاختيار متعمداً بناء على قوة العصبية التي تتمتع به هذه القبيلة البدوية بالمقارنة مع غيرها من الجماعات المتواجدة بالإقليم؟ وهو الأمر الذي يفصح ربما عن اتهامه بالسعي للقيام بدور سياسي تحت ستار الدعوة الدينية في محاولة تعيد إلى الأذهان إعادة إحياء تجربة كل من عبد الله بن يس مع صنهجة في قيام دولة المرابطين وتجربة المهدي بن تومرت مع المصامدة في قيام دولة الموحيدين. لكن تهمته السعي للاستيلاء على الحكم لم توجه إليه هو فقط بل وجهت قبله إلى سيدي بومدين بعد أن اشتهر أمره وشاع في الآفاق ذكره سعي به علماء الظاهر عند خلفاء بني عبد المؤمن في عهد الخليفة أبو يعقوب المنصور إننا نخاف على دولتكم منه، فإن له شبيهاً بالإمام المهدي، وأتباعه كثيرون في كل بلد فوقع في قلبه وأهمه شأنه، فأمر بطلوعه من بجاية إلى حضرته، وكتب إلى والي بجاية بالوصية عليه

خالد محمد

أن يحمل خير محمل " أنس الفقير وعز الحقيير: إبن الخطيب القسنطيني، 1965م، ص 102 وذلك مخافة تكرار ما قام به ابن تومرت مع دولة المرابطين، بسبب التحريض ضده واتهامه بالتحضير لذلك. بينما المتصوفين سواء سعوا لقلب نظم الحكم القائمة حقيقة أو كان ذلك مجرد اتهام، فإنه لم تقم ولا تجربة واحدة ناجحة، بل وحتى محاولة الشايبة عبر تأسيس إمارتها بالقيروان لم تعمر طويلا وسرعان ما قضى عليها الأتراك .

الشيخ عبد الرحمان الثعالبي على المغيلي :

لقد اضطرت النخبة بمنطقة المغرب العربي نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م، إلى اتخاذ موقف من الأحداث السياسية التي كانت تمر بها المنطقة، حيث وجدت نفسها أمام عدة خيارات: إما الثورة على الأوضاع كما فعل المغيلي أو الهجرة كما فعل الونشريسي، أو المدح كما فعل الشاعران الحافظ التنسي والحوضي، أو الانعزال كما فعل الثعالبي وتبعه فيه تلميذه محمد السنوسي "تاريخ الجزائر الثقافي: أبو القاسم سعدالله، ص44" ولكن ذلك لم يكن على حساب الاهتمام بالشؤون العامة وأحوال المسلمين المتدهورة إلى جانب الاهتمام بالجانب العلمي والإنتاج الفكري، وقد أدت مدرسة الجزائر بقيادة الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي دورا محوريا في المجالات الدينية الفكرية والسياسية، عبر عدد من تلاميذه وفي مقدمة هؤلاء، نجد كل من محمد بن يوسف الشريف السنوسي التلمساني، وأحمدا لزروق مجدد الطريقة الشاذلية، بوضع أسس الطريقة الزورقية، والإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي مجدد الطريقة القادرية بالجنوب الكبير وبلاد السودان بغرب إفريقيا جنوب الصحراء .

لقد كان لتلميذ المغيلي على الشيخ عبد الثعالبي بالغ الأثر في مواقفه السياسية ومنهجه الإصلاحية أسوة بشيخه الذي أحاطت بحياته الظروف التي عاصرها والأحداث التي عايشها أو شارك فيها، توضحها رسالته في الجهاد التي وجهها إلى أحد سكان بجاية والتي نكتشف من خلالها أهم ميزات الشيخ، حيث نجد أنفسنا أمام شخصية سياسية ذات اطلاع واسع على الوضع السياسي في العالم عبر تتبعه للحروب الدائرة بين عالم الإسلام بقيادة الدولة العثمانية ودول أوروبا المسيحية والهزائم التي منيت بها وتوقع انتقامهم

الطريقة القادرية من إقليم توات إلى بلاد السودان

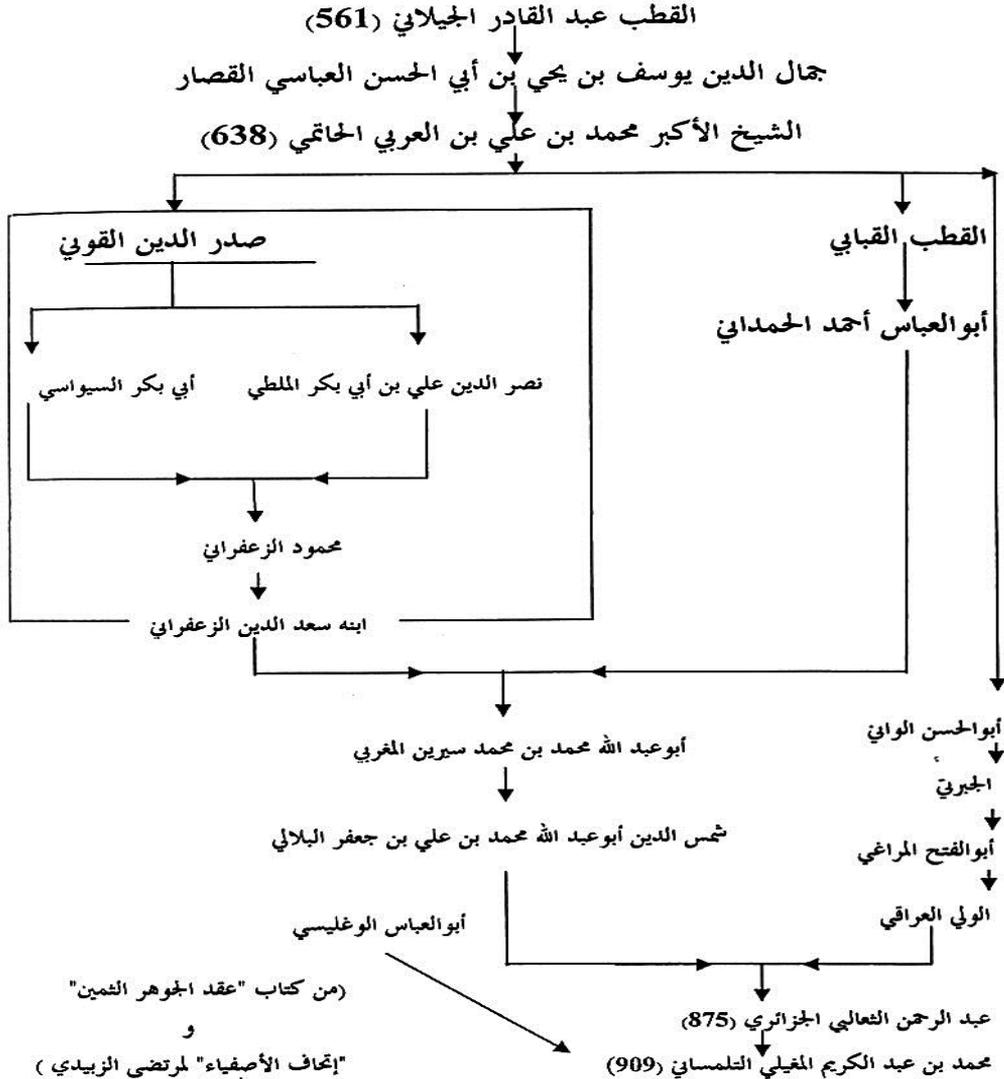
في مناطق الضعف بالبلاد الإسلامية، مقترنة بخبرة في الدعاية المعنوية من خلال ذكر فضل الجهاد وثواب المجاهدين عند الله للتحريض على القتال والنهوض للجهاد والاستعداد لذلك اعتمادا على جوانب روحية معنوية لإقناع عامة الناس ممثلة في الكرامة الصوفية مجسدة في رؤيا النبي في المنام الذي بشره بالجزء الذي ينتظر المجاهدين وهو العتق من النار " أراء وأبحاث في تاريخ الجزائر أبو القاسم سعد الله، 2007، ص206/207 "بهدف تعبئة السكان وحثهم على القيام بواجب الجهاد للدفاع عن أنفسهم وعدم الاعتماد على السلطات الرسمية، فالثعالبي لم يشير في هذه الرسالة إلى حاكم أو أمير بل كان يخاطب الخاصة من العلماء لتعبئة وتحريض الناس على القتال للدفاع عن أنفسهم دون الاعتماد على قوة رسمية أو خارجية، مما يبين حالة الفراغ السياسي وانعدام القيادة في هذه الفترة بالمنطقة، فالتناس تركوا لأنفسهم يتدبرون أمورهم ويدافعون عن أنفسهم. كما تكشف خبرة الشيخ الدقيقة بالأسلحة ووسائل الدفاع الناجعة فيذكر أنواع الأسلحة ومواد تصنيعها والسرعة في ذلك ووفرتها وزهد ثمنها مقارنة مع الأسوار التي تتطلب التكاليف الباهظة وطول الوقت لإنجازها، فهو خبير في صناعة السلاح واختيار الوسائل الدفاعية من الأسلحة ومواد صنعها ووضع الخطط العسكرية خاصة الدفاعية منها " نفس المرجع والصفحة "بين الممارسة الصوفية والاهتمام بالشأن العام لدى المغيلي:

لقد أدى انخراط المغيلي في الشؤون العامة إلى جانب إسهامه الفكري على مدى اتساع رقعة الفضاء المغاربي، وما نتج عنه من صدامات بينه وبين الحكمين الزياني بتلمسان والمربيني الوطاسي بفاس، اضطره للهجرة إلى بلاد السودان بإفريقيا جنوب الصحراء، مروراً بتوات مع تنوع في إنتاجه الفكري بين الديني والسياسي. إن اتساع مجال نشاط الإمام المغيلي ميدانياً انطلاقاً من الشمال تسبب له في مشاكل مع الأنظمة السياسية اضطرت له للهجرة نحو منطقة توات بالجنوب " إقليم توات في القرنين 18/19 للميلاد: فرج محمود فرج، 1977م ص 31 " ليتمدد إلى بلاد السودان بإفريقيا جنوب الصحراء، وقد توزع إنتاجه الفكري ليشمل عدة محاور من العلوم الشرعية والدينية كالفقه والتفسير والتصوف، وأصول السياسة الشرعية في تسيير شؤون الرعية بمقتضيات أحكام الشريعة وبهذا التنوع فإنه قد توجه بفكره نحو كل من

خالد محمد

الرعية والحكام، والذي انعكس في نشاطه العملي بإعادة تجديد وإحياء الطريق القادرية بتوات التي أخذ وردها من شيخه عبدالرحمن الثعالبي وأبو العباس الوغليسي، والخطاطة التالية تبين سند المغيلي في الطريقة الأكبرية القادرية "أضواء على الطريقة القادرية: عبد الباقي مفتاح، 2008م، ص 388 "

سند الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في الطريقة الأكبرية القادرية



الطريقة القادرية من إقليم توات إلى بلاد السودان

وتولى مشيختها كأداة للتعامل مع الرعية من العامة، وقد حمل هذا الإرث الروحي تلاميذه بمنطقة توات خاصة أولئك المنحدرين من قبيلة كنة الذين كانوا من مريدي الطريقة القادرية فقد كانت لهم زاوية بمدينة ولاته بموريتانيا أسسها الشيخ محمد الكنتي في القرن 8هـ وقد ورث مشيخة الطريقة منهم بعد وفاته عمر الشيخ بن احمد البكاي وخلفاؤه الذين واصلوا نشر الطريقة القادرية عبر فروعها البكائية الكنتية أسسها بتوات الشيخ عمر بن أحمد البكاي المتوفي في 960هـ 1552م، البكائية أسسها الشيخ أحمد بن الشيخ محمد البكاي في 1022هـ 1613م، بتوات، والبكرية أسسها بتوات الشيخ البكري بن عبد الكريم المتوفي في 133هـ 1720م، والفاضلية أسسها بمنطقة الأدرار شمال موريتانيا الشيخ محمد الفاضل المتوفي في 7018م، والسيدية أسسها الشيخ سيديا الكبير في 1827م، بمنطقة القبلة بولاية اترارزة جنوب غرب موريتانيا "confrérie religieuses musulmanes Octave Dupont et Xavier Cappolani 1897, p317 Les مورا بموريتانيا وانتهاء والأزواد شمالا وجنوبا في دول غرب أفريقيا جنوب الصحراء حسب الخطاطتان التاليتين" أضواء على الطريقة القادرية، م ص، 407: الأولى تبين سلسلة السند للطريقة الكنتية القادرية:

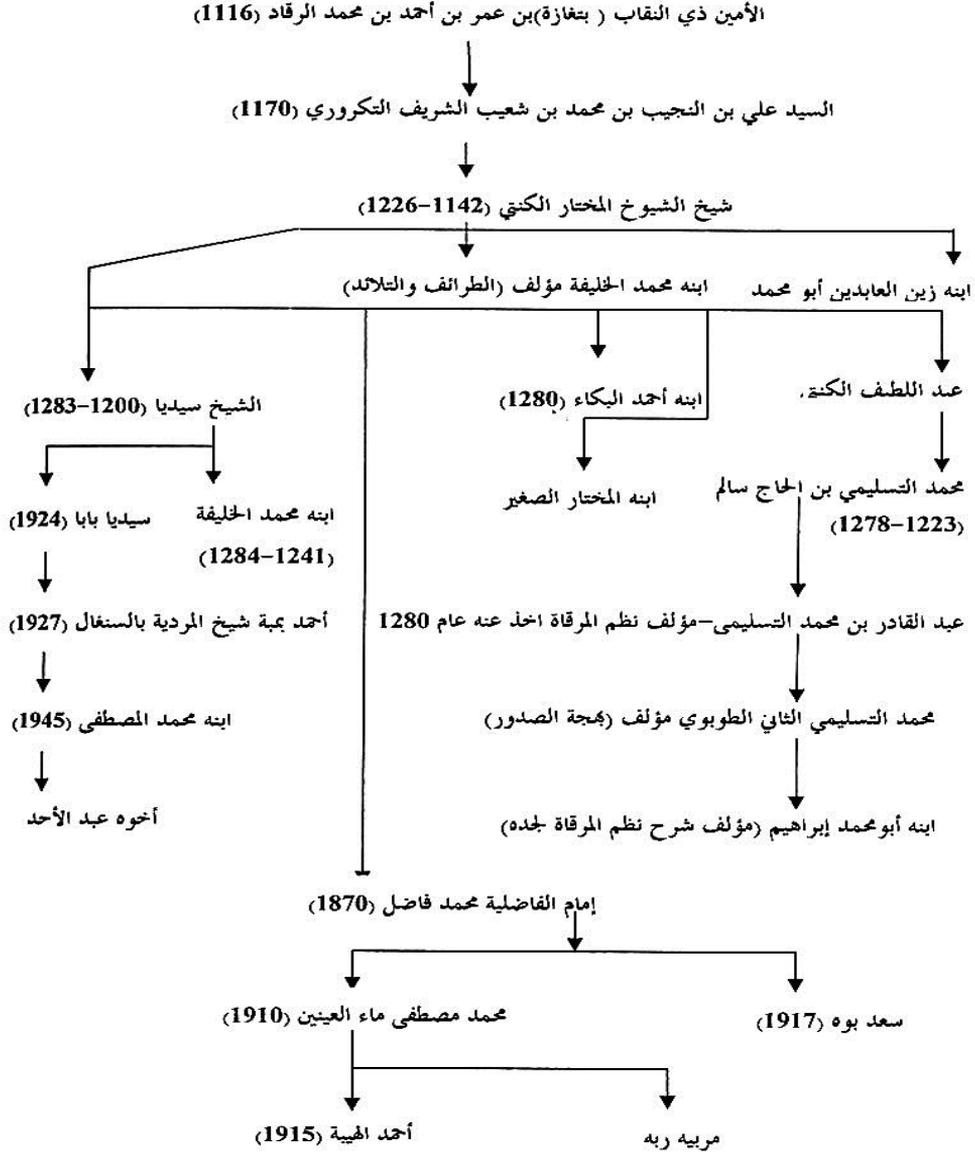
السلسلة الكنتية القادرية الأولى



والثانية : تبين انتشارها عبر سلسلة بعض شيوخها. "نفس المرجع ص408" في الصحراء وبلاد السودان الذين واصلوا نشر الطريقة القادرية عبر فروعها البكائية والفاضلية والسيدية والبكرية" نفس المرجع ص 383 ص 384" في غرب أفريقيا جنوب الصحراء

الطريقة القادرية من إقليم توات إلى بلاد السودان

سلسلة بعض شيوخ القادرية الكنتية في الصحراء وإفريقيا الغربية.



خالد محمد

أما تعامله مع الحكام من الخاصة فتبرز فيما كتبه لحكام بلاد السودان يوضح لهم فيها أصول الحكم وقواعده الشرعية ففي رحلته إلى هذه البلاد حيث أقام بمدنه كاستنا وكانو ثم غاو بإضافة لقيامه بالتدريس في مدينة كانو ببلاد الهوسا فقد كتب لأمرها أبو عبد الله محمد الرمفا الذي استشاره في أمور السلطنة رسالة بيّن له فيها أصول الحكم وقواعده الشرعية، وفي إمبراطورية السنغاي التي اجتمع بعاهلها الأسقيا الحاج محمد الكبير الذي استرشد بأفكار المغيلي في السياسة والحكم وفق الشريعة الإسلامية التي حررها في كتاب "أجوبة على أسئلة الأسقيا الحاج محمد الكبير: تحقيق عبد القادر زبايدية 1973" *رد فيه على الأسئلة التي وجهها له تضمن جملة من التوصيات لإقامة حكومة وإدارة مطابقتين لأحكام الكتاب والسنة. "المصادر العربية للتاريخ الإفريقي: عبد الكريم يورو فال، 1984م، 212

إن اهتمام المغيلي بالشأن العام واتخاذ مواقف من الأوضاع السياسية لم يكن حدثا منعزلا قام به دون غيره بل كان ظاهرة عامة على امتداد القرن 15م، وبداية القرن 16م، سواء في محيطه القريب بالمغرب الأوسط وهو ما قام به الشيخ سيدي عبد الرحمان الثعالبي في إقليم مدينة الجزائر بالتعبئة والمشاركة في الجهاد للتصدي للغزو الإسباني وحثه سكان منطقة بجاية التابعة للحكم الحفصي على الاستعداد للقيام بواجب الجهاد في رسالته المذكورة سابقا ولكنه لم يرأسه انسجاما مع موقفه من الحكام بل راسل محمد ابن الفقيه أحمد الكفيف في هذه القضية، وهو نفس الدور الذي أداه كل من سيدي الهواري المتوفى في 1439م في الدفاع عن مدينة وهران وسيدي محمد التواتي المتوفى في 1475م، في الدفاع عن مدينة بجاية ولم تسقط المدينتين في يد الإسبان إلا بعد وفاة الشيخين في بداية القرن 16م، "مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف، 1989م، ص 101" والملياني الذي دخل في صراع مع الحاكم الوطاسي بفاس والزباني بتلمسان بسبب التقاعس عن القيام بواجب الدفاع والتصدي للغزو المسيحي الذي تعرض له بلاد الإسلام، فقد وقف إلى جانب الأتراك في محاربة الإسبان مكثفيا بدور معنوي بحث السكان على الانخراط في الجهاد تحت قيادتهم، أو البعيد نسبيا بوقوف الجزوليين بالمغرب الأقصى خلف السعديين للتصدي للغزو البرتغالي ولإسباني، والشاييين الذي تصدوا للإسبان بأفريقيا الحفصية فمواقف رموز مدرسة الثعالبي وتلاميذه كان ظاهرة عامة بالمنطقة بسبب ضعفها وتفكك كياناتها السياسية الأمر الذي فرض على رموز النخبة الدينية هذا الموقف فالاهتمام بالشأن العام والتدخل في شئون الحكم في تلك الفترة، كان نتيجة الأوضاع المتدهورة التي عرفتها المنطقة خاصة بعد الهجوم الذي تعرضت له من طرف الإسبان والبرتغاليين

الطريقة القادرية من إقليم توات إلى بلاد السودان

الذين استولوا على الثغور الساحلية على امتداد سواحل بلدان المغرب العربي كلها، وهكذا نجد هذه النخبة التي كانت منضوية في المؤسسة الطريقة الصوفية التي التجئ إليها السكان لمقاومة الغزو الأجنبي سواء في أفريقيا الحفصية أين تصدت لهذه المهمة الطريقة الشاذلية التي أسسها أحمد بن مخلوف الشاذلي المتوفى في 1482م، بقيادة ابنه سيدي عرفة الشاذلي الذي دخل في صراع مع الحكم الحفصية ثم الإسبان ابتداء من 1530م، وأخيرا ضد الأتراك بعد أن أسس إمارة بمنطقة القيروان بوسط تونس. وفي المغرب فإن الطريقة الجزولية التي أسسها أبو عبد الله الجزولي بإقليم آسفي ومنه انتشرت في مختلف أرجاء المغرب عبر فروعها، وصار له نفوذ كبير، أثار مخاوف والي آسفي الذي نفاه من الإقليم في 1465م، وما لبث أن توفي بأفوغال قيل بالسلم في 1470م، فإن تلميذه وخليفته على رأس الطريقة عبد الله بن المبارك المتوفى في 1509م، اعتذر عن قيادة الجهاد ولكنه أشار على أعيان القبائل الذين طلبوا منه ذلك إلى أحد الأشراف بوادي درعة للقيام بهذه المهمة وهو أبو عبد الله محمد مؤسس الدولة السعدية التي قادت الجهاد ضد الإسبان والبرتغاليين في الثغور الساحلية المغربية بعد أن وافق هؤلاء الأعيان على اقتراح الشيخ فأرسلوا في طلب الشريف فجاء بأسرته وبايعوه في 1510م ولقبوه بالقائم بأمر الله. "الفرق الدينية في شمال إفريقيا: الفريد بل، 1982م، ص ص 422/421

أما تهمة السعي للاستيلاء على الحكم فلم توجه فقط إلى هؤلاء الرموز من متصوفي القرن 16م، بل وجهت قبلهم إلى سيدي بومدين بعد أن اشتهر أمره وشاع في الآفاق ذكره سعي به علماء الظاهر عند خلفاء بني عبد المؤمن في عهد الخليفة أبو يعقوب المنصور إننا نخاف على دولتكم منه، فإن له شبها بالإمام المهدي، وأتباعه كثيرون في كل بلد فوقع في قلبه وأهمه شأنه، فأمر بطلوعه من بجاية إلى حضرته، وكتب إلى والي بجاية بالوصية عليه أن يحمل خير محمل "أنس الفقير وعز الحقير م، س، ص 102" وذلك مخافة تكرار ما قام به ابن تومرت مع دولة المرابطين، بسبب للتحريض ضده واتهامه بالتحضير لذلك. بينما المتصوفين سواء سعوا لقلب نظم الحكم القائمة حقيقة أم كان ذلك مجرد اتهام فإنه لم تقم ولا تجربة واحدة ناجحة، بل وحتى محاولة الشاذلية عبر تأسيس إمارتها بالقيروان لم تعمر طويلا وسرعان ما قضى عليها الأتراك.

إذا كان المغيلي قد اضطر للهجرة إلى إقليم توات التي أثار بها قضية اليهود وموقفه منهم والتي انقسم حولها فقهاء تلك الفترة بين مؤيد له ومعارض ودخل بسببها في اشتباك مع حكام فاس الوطاسيين الذين اتهموه بتحريض من فقهاءها بالطموح إلى أكثر من مجرد النهي عن المنكر والأمر بالمعروف أي السعي

خالد محمد

للوصول إلى الحكم، رغم نفيه لذلك بشدة في المناظرة التي عقدها مع علماء فاس الذين عارضوه في هذه القضية بحضور السلطان الذي مال إلى رأي الفقهاء في اتهامه، بالسعي للاستيلاء على الحكم، والذي كان جوابه للسلطان على هذا الاتهام: لا أرى ملكك إلا كما أرى الكنيف" دوحة الناصر: ابن عسك مخطوط رقم 2136 ورقتي 58/57" وعاد إلى توات.

فالمغيلي لم يكن الوحيد الذي اضطر إلى الهجرة من تلمسان نحو الجنوب الكبير بل اضطر إلى ذلك أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب المعيار الذي هرب من تلمسان خفية في 1470م، مهاجرا إلى مدينة فاس بسبب اتهامه من طرف السلطان الزياني المتوكل بالتآمر عليه بعد أن انتهت داره ثم أحرقت، ولا يستبعد المهدي البوعبدلي أن يكون لذلك علاقة بحجرة المغيلي الذي كانت تربطه صداقة وطيدة الونشريسي " مدينة تمطيط ودور الإمام المغيلي بها في قضية يهود توات: المهدي البوعبدلي، 1988م، ص 74، " وهو نفس المصير الذي تعرض له الملياني الذي رغم هروبه وتخفيه في بلاد هوارا وبالتحديد بقلعة بني راشد من مطاردة الحكم الزياني، حيث لم يجد عندما كان هاربا من وهران مروراً برأس الماء إلى هوارا إلا هذا الدعاء على الحاكم الزياني " شوّشونا شوّش الله عليهم في البر والبحر" ومع ذلك فإنه لم يفلح في النجاة من السجن مرتين بعد إلقاء القبض عليه "مليانة ووليها : م س، ص ص 103/102".

إلا أن المستغرب بعد كل هذه المواقف من الأوضاع السياسية بالمنطقة والأحداث التي تمر بها والمبادرات التي قام بها المغيلي وما نتج عنها من مضايقات وما لحق به من مصاعب وما سببته له من متاعب نتيجة التشريد والسجن، هو موقف الدارسين المعاصرين المغيلي في العمل الذي قدمه عبد القادر بوعلقة تحت إشراف جاك بيرك حول تميميون الواحة الحمراء انطلاقاً من الحادثة التي وقعت له بفاس بأنه كان مغامرا سياسيا سعى لإقامة كيان سياسي بالجنوب الصحراوي، وأيده في ذلك رشيد بليل ولكنه مني بالفشل، وأن موقفه في قضية يهود توات كانت البداية والانطلاقة لهذه المغامرة الفاشلة. " قصور غورارة وأولياؤها الصالحون: رشيد بليل 2008م، ص 105"

فالمغيلي الذي أول ما نزل بالمنطقة كان بقصر آت سعيد قرب تميمون بقوراره وباعتباره قادريا فإن محاولته تأسيس زاوية ليس مستغربا بل يعد أمرا عاديا تجاوبا مع تيار العصر الذي تحولت فيه الممارسة الصوفية إلى ممارسة جماعية منظمة أخذت شكل المؤسسة مجسدة في الزوايا الطرقية، فاستقراره بالواحات الصحراوية بالجنوب الكبير لم يكن محاولة منه لإعادة إحياء تجربة رباط عبد الله بن يسّ الذي أرسى دعائم

الطريقة القادرية من إقليم توات إلى بلاد السودان

الدولة المرابطين في مقارنة غير معلن عنها بينهما، لأن المعطيات السياسية والمأثورات الشفهية نتيجة التغيرات التاريخية بالمنطقة لا تؤكد ذلك بل أن استقراره بالمنطقة والأعمال التي قام بها والأدوار التي أداها سواء تلك المتعلقة بمحاولة إقامة سوق مركزي بالمنطقة، أو محاولته تأسيس زاوية قرب تميمون وفشله في ذلك ثم نجاحه بعد تحوله إلى تنظيم في إقامة زاوية صارفا النظر عن فكرة تأسيس السوق، أما إثارته لقضية جهود توات التي سمت العلاقة بينه وبين الحكم الوطاسي بفاس الذي اتهمه بأن له طموحا يتجاوز مجرد الاهتمام بالقضايا الشرعية الفقهية إلى السعي للسيطرة على الحكم " التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي: عبد القادر زبايدية، 1975م، ص212" فرغم أنها قضت على أي تفكير لديه في العودة إلى الشمال فإنها فتحت أمامه آفاقا لنقل اهتمامه ونشاطه الفكري والروحي نحو الجنوب في بلاد السودان بأفريقيا جنوب الصحراء.

ورغم أن المعطيات التاريخية تبين أن مجال المغامرة كان مفتوحا في الشمال لو كان حقا ذو طموح سياسي، فإن نشاط المغيلي في توات وبلاد السودان يوضح وينفي ذلك فمحاويلته حسب المأثورات الشفهية إقامة سوق قرب تميمون بقورارة تنبئ بأنه كان يريد تكسير الجالية اليهودية اقتصاديا بوضع يده على نقطة قوتها وهي السوق مجال نشاطها الاقتصادي، ولعدم تمكنه من ذلك أسس زاوية لتنظيم بتوات لمحاربتهم دينيا، بعد محاربتهم سياسيا بواسطة العنف المادي المباشر، فقراءتنا للمعطيات الشفهية بصورة مغايرة يمكن أن نتعرف على شخصية المغيلي ومواقفه من حوادث العصر.

إن امتداد وتوسع دور الزاوية الطرقية عبر شيوخها خارج مجالها التقليدي الديني الروحي والتربوي في تلك الفترة كان أمرا شائعا خاصة في المناطق المعزولة البعيدة عن سيطرة السلطة السياسية المركزية، أو المناطق المضطربة سياسيا بسبب ضعف وتفكك بنيتها السياسية، حيث تقوم بأداء بعض الأدوار الاجتماعية كفض النزاعات بين القبائل والأفراد لغياب الهيئة القضائية أو العسكرية كتعبئة السكان وقيادتهم في الدفاع عن أنفسهم باعتباره واجبا دينيا لتقاعس السلطة السياسية نتيجة الضعف، أو غيره عن القيام بواجب الجهاد عن للدفاع عن دارا لإسلام، أو الاقتصادية بتقديم العون والمساعدة للسكان والدفاع عن مصالحهم الاقتصادية، فامتداد وتوسع دور المغيلي للمجالين الديني الروحي والاجتماعي إلى المجالين الاقتصادي في محاولته تأسيس سوق بإقليم توات، والسياسي عبر ممارسة العنف ضد الطائفة اليهودية، وهما مجالان من اختصاص الدولة التي من وظائفها تنظيم الحياة الاقتصادية واحتكار العنف، ينبع من

خالد محمد

طبيعة المؤسسة الطرقية التي ينتمي إليها، والتي تتسع وظائفها وتتمدد، أوتنكمش وتتقلص حسب حاجات ومتطلبات الحياة الاجتماعية في الفضاء الذي يحتضنها، وقد انعكس ذلك لدى المغيلي في :

مواقفه السياسية: تتسم بالتناقض بين الصدام مع حكام بلاد المغرب بالشمال عامة والحكم الزياني بتلمسان خاصة واضطراره اللجوء إلى إقليم توات هربا من التضييق والقمع من طرف هؤلاء الحكام، فهو لم يكن الوحيد الذي اضطر إلى الهجرة من تلمسان نحو الجنوب الكبير، بل هو ما حصل لعدد من المشاهير غيره، حيث لجأ سيدي أحمد بن يوسف الملياني إلى قلعة بني راشد بجبل هوار، ولجوء أحمد بن يحيى الونشريسي صاحب المعيار إلى فاس بالمغرب، بل اضطر إلى الهرب من تلمسان خفية في 1470م، بسبب اتهامه من طرف السلطان الزياني المتوكل بالتآمر عليه بعد أن انتهت داره ثم أحرقت، ولا يستبعد المهدي البوعبدللي أن يكون لذلك علاقة بمجرة المغيلي الذي كانت تربطه صداقة وطيدة الونشريسي، "دوحة الناشر: م س نفس الورقتين" أما علاقته بالحكم الوطاسي بفاس الذي خشي من نشاطه الديني بالجنوب فلم تكن أحسن منها، إلا أنها أخذت منحى مختلفا أخذ شكل الجدل العلمي رغم طابعها السياسي، تمثلت في تحديه لعلماء فاس الذين اتهموه بالسعي للسلطة تحت الغطاء الديني، بسبب قضية يهود توات وانقسام فقهاء تلك الفترة حولها بين مؤيد له ومعارض، دخل بسببها في اشتباك مع حكام فاس الوطاسيين الذين اتهموه بتحريض من فقهاءها بالطموح إلى أكثر من مجرد النهي عن المنكر والأمر بالمعروف أي السعي للوصول إلى الحكم، رغم نفيه لذلك بشدة في المناظرة التي عقدها مع علماء فاس الذين عارضوه في هذه القضية بحضور السلطان الذي مال إلى رأي الفقهاء في اتهامه، بالسعي للاستيلاء على الحكم، وكان جوابه للسلطان على هذا الاتهام: "لا أرى ملكك إلا كما أرى الكنيف" أضواء على تاريخ مدينة تمنطيط... م س، ص 74" وعاد إلى توات.

والتعاون مع حكام بلاد السودان بالجنوب التي تبرز فيما كتبه لحكام بلاد السودان التي يوضح لهم فيها أصول الحكم وقواعده الشرعية ففي رحلته إلى هذه البلاد حيث أقام بمدنه كاستنا وكانو ثم غاو فإضافة لقيامه بالتدريس في مدينة كانو ببلاد الهوسا فقد كتب لأمرها أبو عبد الله محمد الرمفا الذي استشاره في أمور السلطنة رسالة بيّن له فيها أصول الحكم وقواعده الشرعية، وفي إمبراطورية السنغاي التي اجتمع بعاملها الأسقيا الحاج محمد الكبير الذي استرشد بأفكار المغيلي في السياسة والحكم وفق الشريعة الإسلامية التي حررها في كتاب "أجوبة على أسئلة الأسقيا الحاج محمد الكبير* حققه عبد القادر زبادة رد

الطريقة القادرية من إقليم توات إلى بلاد السودان

فيه على الأسئلة التي وجهها له تضمن جملة من التوصيات لإقامة حكومة وإدارة مطابقتين لأحكام الكتاب والسنة" المصادر العربية للتاريخ الإفريقي: م، س، ص 212.

التناقض بين التشدد والتسامح: يبرز ذلك في انتماء المغيلي للمؤسسة الصوفية التي تطبعها ميزة التسامح التي تتعارض مع تشدده في الالتزام بالأحكام الدينية وهذا راجع إلى انتمائه للطريقة القادرية وعلاقة هذه الطريقة بالمذهب الحنبلي المتشدد الذي ينتمي إليه مؤسس الطريقة القادرية الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي كان مفتيا على هذا المذهب. ويثار هذا التناقض في مواقف المغيلي عند تناول موقفه من جهود توات التي قسمت الفقهاء المعاصرين له بالمنطقة بين مؤيد ومعارض، رغم أن هذه القضية تعتبر تفصيلا جزئيا في حياته بالمقارنة مع نشاطه الضخم والكثيف في الجنوب سواء بإقليم توات، أو بإفريقيا جنوب الصحراء على مدى ربع القرن قضي أكثر من 20 سنة منها في بلاد السودان، كداعية لنشر الدين الإسلامي، أو كمستشار لدى الحكام يبين لهم أصول الحكم وقواعده الشرعية ويقدم لهم النصيحة، لرعاية المواطنين وحفظ حقوقهم، والتي لم يسجل فيها أي تشدد في حق غير المسلمين مباشرة منه، أو بوحى منه من طرف الحكام، في حين لم تتعد مدة إقامته بتوات الخمس سنوات على أكبر تقدير.

الخلاصة: ختاماً ماذا بقي من تجربة الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي في رحلة عبوره الصحراء عبر فضاء توات؟ إن ثورة المغيلي على الأوضاع ومواقفه الحادة منها والعنف الذي مارسه الحكام ضده بتواطؤ الفقهاء التي اضطرت له لهجرة نحو الجنوب الكبير، فتح أمامه مجال النشاط في بلاد السودان بإفريقيا فكريا وروحيا، فإنتاجه الفكري في الفقه والتفسير واللغة والسياسة الشرعية احتوته بطون المخطوطات والكتب، في حين بقي تراثه الروحي المستمد من تجربته الروحية مجسدة في ممارسته الصوفية المؤطرة في الطريقة القادرية الذي انتشر في الجنوب الكبير وبلاد السودان بغرب أفريقيا، رغم محاولات شخصيات صوفية قادرية قدمت إلى المنطقة من فضاءات أخرى وبالتحديد من مصر ممثلة في الشيخ محمود البغدادي شيخ الطريقة الحمودية، في 1550م. "أضواء على الطريقة القادرية: م، س، ص 409" فإن تجربة المغيلي القادرية هي التي كانت لها الهيمنة والانتشار عبر فروعها المتعددة، رغم اضمحلال الأسس التجارية والاقتصادية للعلاقات بين الفضائين والتي ساهمت المغامرة العسكرية للسلطان المنصور السعدي في 1591م في تعميقها بتبديل وجهة التبادل التجارية نحو الساحل لفائدة التجار الأوروبيين فإن بصمات الطابع الإسلامي في شمال أفريقيا والصحراء تبرز بشكل واضح جدا على النخبة المثقفة من المسلمين في أفريقيا السوداء" المصدر العربية للتاريخ الإفريقي: م، س، ص 213" التي استمرت حتى بداية القرن 20م. فرغم العنف الذي

خالد محمد

مورس ضده فإن تراثه الروحي والفكري كان هو الرد على العنف، وذلك لانتمائه إلى المؤسسة الطرقية الصوفية ، التي من تقاليدھا الراسخة مواجهة العنف بالتسامح بدل الانتقام.

المصادر والمراجع

- 1/ ابن عسکر محمد دوحه الناشر مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائر رقم 2136
- 2/ أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي تحقيق عبد القادر زيايدية S N E D الجزائر 1973م
- 3/ ابن الخطيب القسنطيني أنس الفقير وعز الحقير تحقيق محمد الفاسي وأودلف فور المركز الجامعي للبحث العلمي الرباط 1965م
- 4/ محمد بن الحاج عبد الرحيم بابن بابا حيدة: القول البسيط في أخبار تمنطيط تحقيق فرج محمود فرج ديوان المطبوعات الجامعية المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1977م
- 5/ ابن بطوطة : الرحلة : موفم للنشر الطبعة الأولى الجزء 2 الجزائر 1989م
- 6/ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المعروف بالعبر وديوان المبتدأ والخبر... موفم للنشر الطبعة الأولى الجزء 14 الجزائر 1996م
- 7/ أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي دار البصائر طبعة خاصة الجزء الأول الجزائر 2007م 8/ أبو القاسم سعد الله / أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر دار البصائر طبعة خاصة الجزائر 2007 م
- 8/ الفريد بل الفرق الدينية في شمال أفريقيا ترجمة عبد الرحمان بدوي م دار الغر الإسلامي لبنان 1982م
- 10/ محمد حاج صادق مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف/ ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1989م
- 11/ رشيد بلّيل: قصور غورارة وأولياؤها الصالحون ترجمة عبد الحميد بورايو CNRPAH الجزائر 2008م
- 12/ عبد الباقي مفتاح : أضواء على الشيخ عبد القادر الجلاي وانتشار طريقتة : درا الهدى عين مليلة الجزائر 2008م
- 13/ المصادر العربية للتاريخ الإفريقي : التقييم والآفاق تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19م المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومعهد البحوث والدراسات العربية بغداد 1984م

الطريقة القادرية من إقليم توات إلى بلاد السودان

14/ الملتقى الثقافي الأول للتعريف بمنطقة أدرار 1985م محمد بن عبد الكريم المغيلي المركز الوطني

للدراستات التاريخية المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر 1988م

15/ زيادة عبد القادر مجلة الأصالة عدد 8/7 وزارة الشؤون الدينية 1975

/16 Octave Dupont et Xavier Cappolani Les confréries religieuses
musulmanes Maisonneuve paris 1897